ودخل منهُ اللورد دوغلاس . فأبرقت اسرة الملك وزال عنه ما كان قد انتابه من الرعب . وكان اللورد يترقب منذ الصباح ان يستدعيه الملك . فلما دخل عليه ، وكان قد درس امائر وجهه منذ زمان، قال له — الحمد لله، فان جلالة مولاي الملك يريد الان ان يسعد شعبه

فدهش هنري وقال — وماذا تريد ان تقول بهذا الكلام ؟

قال — اريد ان اقول ان جلالتك قد عزمتَ اخيراً ان ترتاح من عناء التأليف وتهتمّ قليلاً بصحتك العزيزة ، ولا جرَم يا سيدي ان سعادة انكلترا باسرها متوقفة على سلامتك وصحتك ، فان كنتَ انتَ معافىً كان الشعب الانكليزي كله معافىً

فبشَّ الملك لدوغلاس وهو لا يشك في صدق كلامه . وكان دوغلاس ينظر اليه باعجاب ويقول في نفسه : « مهلاً ايها الملك ! انا عالم بان نفسك تظمأ الان الى دم بشري جديد، فمتى ارتويتَ منه تعود الى صحتك وسرورك، ولدينا الان لحسن الحظ مؤونة كافية لإرواء نفسك ، ولكن يجب ان نُحكم العمل لئلا يكون ذلك وبالاً علينا . . . » . ثم تقدم الى الملك فقبل يده وقال — اني اقبِل اليد التي كانت اليوم ينبوع الحكمة الفائضة بغزارة على هذه الاوراق المباركة من الله ، وأقبِّل هذه الاوراق لانها كنز الحكمة ، ومنها تستمدُّ الامة اسباب سعادتها وهنائها . ولكني مع ذلك أبتهل اليك يا مولاي ان تكفَّ الان عن العمل وتخلد الى الراحة ، ولا تنسَ انك مع كل حكمتك انسان مفتقر الى الراحة

قال — نعم فما انا الا انسان ضعيف وعاجز . . ثم تنهّد وحاول النهوض عن كرسيه وهو يستند على ذراع دوغلاس ، وقد ألقى عليه كل ثقله ،

حتى كاد اللورد يسقط تحته عياءً ، ولكنه مع ذلك قال — عجبًا يا سيدي ، كيف تنسب الضعف لنفسك وانت تتحرك اليوم بخفة الشباب ، وقد نهضتَ عن الكرسي وانت لا تكاد تستند على ذراعي

فقال الملك متنهِدًا — ولكني اشعر بالشيخوخة

قال — كيف تذكر الشيخوخة بشفتيك ولك هاتان العينان البراقتان وهذا الجبين الواضح وهذه الطلعة السنية ؟ كلا يا مولاي ، ان الملوك لا يشيخون لانهم يشبهون الالهة

وفي هذه اللحظة دخل يوحنا هيود المهرّج ، وكان قد سمع كلام اللورد دوغلاس ، فقال — اما انا فأرى ان الملوك يشبهون البيغاوات تمام الشبه ، فلدي ببغاء ورثتُهُ من جدّي ، وجدّي ورثه من جدّه الذي كان مزيّنًا للملك هنري الرابع ، وقد مرَّ على هذا البيغاء الى الان مئة سنة ، وهو لا يزال يردّد ما كان يقوله في اول عمره : « ليحيَ الملك هنري مثال الفضيلة والبرّ والعقل والجمال والرأفة ! » وكلمات الاطراء هذه ، التي لا يزال يردّدها ببغائي ، سمعها كلٌّ من هنري الرابع والخامس والسادس والسابع ، وقد تغير هؤلاء الملوك وأفضت النوبة اليك يا سيدي ، ولكن قول البيغاء لم يتغير ، فكلُّهم فى نظره مثال الفضيلة والبرّ والعقل والجمال والرأفة . . . هذه حقيقة اللورد دوغلاس ، فتأكد يا سيدي صدق كلامه لان صلة القرابة تجمع بينهُ وبين ببغائي ، وقد تعلّم اللورد من البيغاء هذا النشيد الدائم

فضحك الملك لهذا الكلام ، ونظر اللورد الى المهرّج وهو يكاد يتميّز من شدّة الغضب ، فقال له الملك مشيرًا الى يوحنا — انه فكِه وهذار مطرب

فقال دوغلاس — ولكنهُ مهرّج احمق

فقال يوحنا صدقتَ ايها اللورد ، فانا لم أقل للملك الحق الاَّ لكوني مهرّجًا ، ومعلوم ان الحق لا ينطق به الا الاولاد والحمقى ، وقد صرتُ مهرّجًا لجلالة الملك ليكون لديه على الاقلّ رجل واحد لا يكذب ولا يماري ، بل يطلعهُ على حقائق الاشياء مجرَّدةً عن كل تمويه

فقال الملك — وما هي الحقيقة التي تريد ان تقولها لي الان ؟

قال — هي ان الطعام قد أُعِد ، فدع الان كل اهتمام بالمسائل السياسية والروحية وخذ لنفسك هنيهةً من الزمان لتناول الطعام . كن الان شبيهًا بالحيوان الضاري الذي يقتات باللحوم ، فليس اسهل من ان يكون الانسان ملكًا اذ لا يلزمهُ لذلك الا ان يكون من نسل الملوك ، ولكن يعسر عليه جدًّا ان يكون انسانًا بمعدة قوية اذ يلزمه لذلك ان يهضم طعامهُ جيدًا ويكون ناعم البال . فهيا بنا اذًا ياذا الجلالة الى حيث يمكنك ان تبرهن لنا على انك لستَ ملكًا فقط بل انك انسان ايضًا بمعدة صحيحة

ثم اخذ الملكَ بيده وجرَّهُ الى ردهة المائدة

وكان هنري الثامن أكولاً نهمًا ، فلما بلغ ردهة الطعام جلس في كرسيه الذهبي وتناول من قيّم المائدة رقعة باسماء انواع الطعام التي ستُقدَّم في هذا النهار وشرع يأكل وهو مقطب الجبين ، ولكنه كان من وقت الى آخر يبتسم لكلمات يوحنا هيود ونكاته . . ان هذا الملك لم يكن يهنأ له عيش في غياب السيدات ، فكان يحبهنَّ كما يحب الصيَّاد اسراب الطير وانواع الحيوانات التي يمكنه صيدها ، وكان غياب السيدات يؤثّر في نفسه تأثيرًا سيئًا ، فيبقى طويلاً مشرَّد الفكر مضطرب القلب

وكان اللورد دوغلاس يعرفه في جميع حالاته ويقرأ صفيحة قلبه من امائر وجههِ ، فلما رآه الان منزعج الخاطر وقد ادركَ سبب ذلك ، أحب ان يغتنم هذه الفرصة ليرفع قدر ابنتهِ في نظره ويحقِّر الملكة في وقت واحد ، فقال – اظنني سأكون مجرماً سياسياً يا مولاي لانني اتهم الملك باعمال غير شرعية

فالتفت الملك الى اللورد وفي يده كأس ذهبية مزيَّنة بالجواهر الكريمة فاحتسى ما كان فيها من الشراب وقال بدهشة – وما هي هذه الاعمال الغير الشرعية التي تتهمني بها ؟

قال – نعم اني اتهم جلالتك بذلك مع انك نائب الله على الارض ، كما اني اتهم الله نفسَهُ بالظلم لو حرمني الشمسَ البهية والازهار الجميلة . اننا نحن معاشر البشر قد تعوَّدنا ان نتمتع بمواهب الله ، فان منعها عنا لا نتأخر عن رفع شكوانا اليه واتهامنا اياه بالظلم . وهكذا انت ياذا الجلالة فقد حرمتنا اليوم جلالة الملكة وهي عندنا احد اشعة الشمس الباهرة

قال – ليس الامر كما تقول لان الملكة نفسها قد شاءت اليوم ان تخرج للنزهة ممتطية جوادها ، فالظاهر ان نسيم الربيع قد استفزَّها لذلك، ولما كنتُ لا أستطيع ان اكون كالله حاضراً في كل مكان ، اضطررت ان ابقى هنا وأُحرم وجودها بقربي، وزد على ذلك فليس في كل انكلترا جواد يليق بالملك

قال – ولكن كيف آثرت الملكة الخروج الى النزهة على البقاء بازائك ؟ بالحقيقة ان قلوبِ النساء باردة وشديدة الطمع وحب الذات. اما انا فلو كنتُ زوجتك لما فصلتُ عنك لحظة من الزمن ، بل لكانت

سعادتي العظمى ان اجلس الى جانبك واسمع اقوالك الحكيمة ..آه لو كنتُ امرأةً ... فقاطعه يوحنا هيود قائلاً – أرى ان امنيتك الاخيرة يا حضرة اللورد قد تحققت لانك تتكلم كالعجوز الشمطآء

فضحك كل من كان جالساً الى مائدة الطعام الا الملك فانه قطب حاجبيه وقال – نعم ان الملكة كانت مسرورة جداً بهذه النزهة ولم ارها جذلة قط كهذا النهار ، فلا بدَّ من ان تكون لهذه النزهة علاقة خفية لا أعلمها. فهل تعلمون مَن خرج بمعيتها ؟

وكان يوحنا هيود قد ادرك ما أراده اللورد دوغلاس من الوشاية بالملكة فأجاب – خرجت بمعية الملكة البرنسة اليصابات ، وهي كما لا يخفى صديقة حميمة لها ، لا تطيق الواحدة ان تبتعد عن الاخرى لحظة ، وكذلك رافقتها سيدات البلاط

فقال دوغلاس – وامير الاصطبل ايضاً ...

فقاطعهُ يوحنا قائلاً – ان ملاحظتك في غير محلها يا حضرة اللورد ، لان من واجبات امير الاصطبل ان يرافق الملكة الى كل مكان كما ان من واجباتك انت ان تردّد نشيد ابن عمك الببغآء

فقال الملك – أصبتَ يا يوحنا لان من واجبات طوماس سيمور ان يكون بصحبة الملكة في كل مكان ، وهذه هي ارادتي ، وقد تأكد لي ان هذا الكونت خادم أمين لي ، وقد ورث هذه الامانة من اخته حنة سيمور الملكة المحبوبة الراقدة بالرب ، التي كانت من اصفى زوجاتي واكثرهنَّ امانةً واخلاصاً

فقال دوغلاس في نفسه : « لم يحن الوقت بعد للتعدّي على سيمور

لان الملك يحبه ُ ويثق به ٬ وعليه فالافضل ان نبدأ بالكونت هنري غوفارد ٬ فهو عدوّ سيمور ٬ والملك يكرهه ُ كراهةً شديدة ٬ واذا حملنا الملك على معاقبتهِ نستطيع ان نحمله ُ على معاقبة الملكة ايضًا للعلاقة التي سنربطها بينهما»

وكان الملك قد اخذ كأسًا اخرى من الخمر فتجرعها دفعةً واحدةً ٬ وما كادت تستقرُّ في جوفهِ حتى هاج دمه ولعبت نار الغيرة في قلبه فقال بصوت عالٍ — ومَن ذهب مع الملكة غير هو ٬ لا ؟

فقال دوغلاس — اظن ان اللورد هنري غوفارد قد رافق جلالتها ايضًا

فقطب الملك حاجبيه وصار اشبه بوحش ضارٍ يتحفز للوثوب على فريسته

وكان يوحنا هيود يراقب كل حركة تبدو على وجهه ٬ فقال موجهًا كلامه الى دوغلاس — انك ترجم بالغيب يا حضرة اللورد ٬ فليس اللورد هنري غوفارد في حاشية الملكة اليوم

فقال دوغلاس — مسكين اذًا هنري غوفارد لانه لم يُتَح له ان يرافق جلالتها ٬ ولعله بسبب ذلك في اشد حالات الاكتئاب والاضطراب

فقال الملك بهيئة الغضب — وما الداعي الى اكتئابه واضطرابه ؟

قـال — ذلك لانه اعتاد ان تشرق عليه اشعة الشمس المنبثقة من الملكة ٬ وهو كالزهرة التي ترفع رأسهـا الى شعاع الشمس لتستمدَّ منه بهجتها وقواها الحيويّة

فقال الملك — ولكن ليحذر اللورد غوفارد ان تحرقه هذه الشمس

فقال يوحنا هيود — اني انصحك يا حضرة اللورد ان تضع الزجاجات على عينيك لتبصر جيدًا ولا تعود تخلط بين الشمس واحدى النجوم التي تدور حولها . فاعلم ان هنري غوفارد رجل عاقل بصير لا يمكنه ان يطمح

بنظره الى الشمس لعلمه بانها لا تلبث ان تعميه ولذلك تراه قد اكتفى باحدى النجوم الدائرة حول الشمس فهي مرمى بصره ومنتهى امله

فقال دوغلاس — وماذا تعني بهذا الكلام ؟

قال — اريد ان اقول لك انك قد اخطأت هذه المرة ايضاً لانك تخلط بين ابنتك وجلالة الملكة وقد حدث لك الان ما يحدث احياناً لبعض الفلكيين الذين يحسبون النجم الصغير الحقير شمساً

فاتقدت عينا دوغلاس غضباً وشعر بنار الانتقام تتأجج في صدره وهو لا يدري كيف يصب نار غضبه على رأس يوحنا هيود لانه رآه عدواً شديد البأس قوي الحجة. اما الملك فكان غائصاً في لجة التأملات وامائر الغضب ظاهرة في وجهه ولم يلبث ان نهض عن كرسيه بدون مساعدة احد فنهض جميع الحضور ولحظ يوحنا هيود ان اللورد دوغلاس والاسقف غاردنر ومهردار الدولة اللورد رايوتشسلي يختلسون فيما بينهم نظرات مريبة فتحقق انهم عازمون على نصب اشراكهم في هذا النهار فقال في نفسهِ : « ان هؤلاء الضواري قد اغتنموا الان فرصة غياب الاسقف كرانمر ليقوموا بما نووا عليه من الجرائم ولكني سأقتفي آثارهم واكشف خفايا صدورهم الخبيثة »

ثم قال الملك — قد انتهى الطعام ايها السادة ! — فحيا اكثر الحضور وخرجوا من ردهة الطعام ولم يبقَ فيها الا اللورد دوغلاس والاسقف غاردنر والمهردار. اما يوحنا هيود فاختلس نفسه الى غرفة الملك واختبأ وراء ستارة تُغشّي باباً بين غرفة الملك واحدى ردهات الاستقبال واقام ينتظر الملك واصحابه ليسمع ما يدور فيما بينهم

وقال الملك للورد دوغلاس وصاحبيه – هيا بنا نذهب الى غرفتي حيث يمكننا ان نشغل بعض الوقت فيما يعود على شعبي بالخير والسعادة . ثم استند على ذراع دوغلاس وسارا الى جهة الغرفة التي اشار اليها الملك يتبعهما على بُعد بضع خطوات الاسقف غاردنر والمهردار . وفي هذه الفترة دار بين الملك ودوغلاس الحديث التالي :

قـال الملك – انت تقول ان هنري غوفارد يتجاسر على الدنوّ من الملكة

قال – ليس هذا ما قلته يا مولاي وانما اردت ان اقول ان غوفارد يحاول ان يكون على الدوام حيث تكون الملكة

– وهل تظن ان الملكة تبيح له ذلك ؟

– اني اعتقد ان جلالتها على اعظم جانب من الشرف والامانة

– فلو كان اعتقادك بها غير هذا لجعلتُ رأسك عند قدميك

– ان رأسي هو رهين اشارة جلالتك فيمكنك ان تفعل به ما تشآء

– وهل تظن ان غوفارد يحب الملكة ؟

– نعم يا سيدي انه يحبها

فاتقدت عينا الملك غضباً وقال بصوت يتهدج – اني سأنتقم اذاً من هذا الرجل وادوس رأسه بقدميَّ كما دست اخته من قبل ، لان اسرة غوفارد هذه مشهورة بطمعها وكذبها وشرها فان لم نتلافَ الامر اشتدَّ ساعدها وتفاقم خطرها

– ولا تنسَ يا سيدي ان هذه الاسرة تذكر على الدوام ان امرأة من نسلها قد جلست واياك على عرش واحد

— ويجب ان تنسى الان ذلك لاني قد عزمت ان ازيل هذا الذكر من رؤوس اعضاء هذه الاسرة ولو اضطررت الى كسر جماجم رجالها .. انهم لم يعتبروا بما جرى لاختهم فسأعطيهم درساً آخر اشدّ وقعاً وأعظم تأثيراً مما سبق ، وأفوّض اليك ان تسمي جهدك في البحث عن ذريعة اتمكن بها من جرّ هنري غوفارد هذا او غيره من زعماء هذه الاسرة الى النطع. جئني بدليل صغير على هيام هنري غوفارد بالملكة وانا أعدك بعمل ما تشاء

— لبيك يا سيدي فسأُقدم لجلالتك الدليل الواضح

— ومتى تفي بهذا الوعد ؟

بعد اربعة ايام وسيكون ذلك في عيد مولد جلالة الملكة في خلال الحفلة التي ستُقام بامر جلالتك ليتناظر فيها الشعراء اكراماً لصاحبة العيد

— شكراً لك ايها اللورد لانك بعد اربعة ايام ستخلصني من نسل غوفارد اللعين

— واذا لم أستطع يا مولاي ان اقدم لجلالتك البرهان الساطع على خيانة هنري غوفارد الأ باتهام شخص آخر من ذويك ؟

وكان الملك قد دخل غرفتهُ. فلما سمع كلام دوغلاس ارتعدت فرائصه فتوقف عن المسير وقال — لعلك تشير بذلك الى الملكة ! فان كانت شريكتهُ فلتستعدّ للعقاب الشديد .. ان الله قد جعل الصولجان في يدي لأَسوس شعبي وأسدّد مملكتي الى قمة المجد والنجاح . وعليه فيجب ان تدقق البحث وتأتيني بالبرهان الذي ستقودك اليه حقيقة خيانة غوفارد ، ولا تخشَ ان يكون للملكة علاقة بذلك ، فما انا ممن يحجمون عن معاقبة المجرمين واجراء العدل في مجراه

الفصل الرابع عشر

صديق الملكة

سمع دوغلاس كلام الملك الاخير وهو يكاد يطير فرحاً لانه تحقق ان سهمه الذي وجّههُ الى صدر الملكة سيطعنها الطعنة القاضية ، فاختلس النظر الى صديقيه الاسقف والمهردار ثم واصل الثلاثة سيرهم وهم في غاية الحبور من نجاح مسعاهم

وكان يوحنا هيود يراقب حركاتهم من مخبإه ويسمع كل كلمة يقولونها ، فثبت لديه ان هوءلآء الرجال لم يجتمعوا بالملك في هذه الخلوة الأ ليوغروا صدره على الملكة وينفثوا في نفسهِ سمومهم الخبيثة فحدّد بصره وأرهف اذنيه لئلا تفوته حركة او كلمة تبدو منهم

وكان الملك قد استلقى على ديوانه ، فدنا منه الاسقف غاردنر وقال — اسمح لنا يا سيدي قبل كل شيء ان نستدرّ نِعَم الله على موءتمرنا هذا ونسأله تعالى وهو اله المحبة والغضب ان ينير بصائرنا ويباركنا

فضمّ الملك يديه وصلّى قائلاً — قدّرني اللهمّ على معاقبة اعدائك وسحق جميع الذين يتجاوزون نواميسك

فكرّر غاردنر صلاة الملك وختمها بقوله — امين

وقال المهردار — ارسل لنا ايها الاله العظيم سهاماً من رعود غضبك لنتمكن من ارشاد الناس الى الاعتراف بسلطانك وجبروتك

ثم قال الملك — والان ايها اللوردات المحترمون قولوا لي مـا هي احوال الدولة والبلاط ؟

فقال غاردنر – انها على غير ما يُرام يا سيدي لان الكفر لا يزال شامخًا برأسه كالتنين الذي كلما قطعتَ له رأسًا نبت في مكانه رأسان جديدان . فما ان جماعة المصلحين والكفرة يزدادون انتشارًا في البلاد يومًا فيومًا وقد فشا شرُّهم وتفاقم فسادهم ، ونحن لا نستطيع الى مقاومتهم سبيلاً ، لان السجون قد غصَّت بالمجرمين ، وكلما سُقنا بعضاً منهم الى النطع نراهم يموتون بثبات وشجاعة وفرح ، فيؤثر ذلك في الشعب ، فيزداد عددهم بمن ينحاز اليهم من الاتباع والهراطقة الجدد

فقال المهردار – كل ذلك لاننا وعدنا بالعفو عمن يتوب عن كفره وضلاله ، فأصبح جمهورهم يزدرون برحمتنا ويؤثرون عليها موت الشهادة. وتعلم جلالتك اننا أحرقنا اميل كوفوردال لانه تجاسر وترجم التوراة الى لغتنا ، غير ان موته كان اشبه بدويّ الجرس الهائل لانه ايقظ غيره من هؤلاء الكفرة ، فلم نلبث ان رأينا هذه الكتب قد تُرجمت اربع مرات وانتشرت في طول البلاد وعرضها ، فتداولتها الايدي واقبل الناس على مطالعتها اقبالاً عجيباً ، وهكذا ترى ان البذار السامّ قد أُلقي في كل تربة من بلادنا وانتشرت حرية الفكر بين كل طبقة من الامة

ولما فرغ المهردار من كلامِهِ التفت الملك الى دوغلاس وقال – سمعتَ ايها اللورد ما قاله لي الان زميلك عن احوال المملكة ، فأطلعني انت على احوال البلاط

فقال – ان الشعب يا مولاي يقتفي دائماً آثار رجال البلاط ، فهو يزدري بالايمان لان بعض رجال البلاط يزدرون به ، وهو يسترسل الى الضلال ولا يكترث بكل وعيد لانه يرى في هذا البعض من رجال

البلاط عضداً قوياً

قال – انت تتهم الناس ولا تصرّح باسمائهم . فمن ذا الذي يجترئ في بلاطي ان يعضد الهراطقة ويساعدهم ؟

فاجاب الثلاثة بصوت واحد – هو كرانمر اسقف كنتربري

فقال الملك مدهوشاً – كرانمر ؟ ولكنني اعهده خادماً اميناً وصديقاً مخلصاً لي . فهو الذي خلّصني من رباط الزواج بكاترينا اراغون وحذّرني من كاترينا غوفارد ثم اطلعني على خيانتها . فما ذنبهُ الان ؟

فقال غاردنر – انه لا يعترف بالمواد الدينية الست التي وضعتها جلالتك ، وينكر سرّ الاعتراف ، ويعتقد بان يمين التبتُّل لا تقيد الانسان

قال – اذا كان هذا ما يعتقده كرانمر فهو اذاً خائن للمملكة . . اني قد منحت ُ شعبي هذه المواد الست(١) لتكون لهم دستوراً مقدساً ، فلا اطيق مَن يزدري بها لانها التعليم الحقيقي الوحيد الذي يقي شعبي من الزلل . . ولكنكم مخطئون ايها اللوردات لاني واثق باخلاص كرانمر وامانتهِ

فقال غاردنر – ولكنه يا مولاي يعضد الهراطقة ويحول دون توبتهم ورجوعهم الى جلالتك كملك ورئيس الايمان ، فهو يعلمهم ان الله محبة ورحمة ، وان المسيح قد جاء الى الارض يحمل اليهم المحبة ومغفرة الخطايا ، وان

---

(١) صدر القرار بهذه المواد سنة ١٥٣٩ وهو يقضي بالغاء الاديار وبان الديانة ليست عملاً خاصاً من اعمال الضمير يستطيع كل انسان ان يكتفها كما يشاء بل هي مصلحة عامة يجب على جميع افراد الامة ان يعترفوا بها على السواء ومَن انكرها كان يُعدُّ جانياً

المسيحيين الحقيقيين هم مَن قبلوا تعليم المسيح وساروا في طريق المحبة.. أ فلا ترى جلالتك انه لا يقصد بكل هذا التعليم الا معاداتك في السر ؟ فكأنه بتحبيذه المحبة ومغفرة الخطايا ينكر عليك غضبك العادل وتصدّيك لمعاقبة المجرمين

وقال دوغلاس — ولو اكتفى كرانمر بنشر التعاليم المسيحية عن المحبة لظلَّ خادمًا امينًا لسيده ومن حزب ملكه ، ولكنهُ باعماله وحياته مثال للعصيان والخيانة ، فهو لا يعترف بصحة المواد الست بكلامهِ فقط بل باعماله ايضًا ، فقد أمرت جلالتك بعدم تزوُّج رجال الدين ومع هذا فالاسقف كرانمر متزوج

فحمي غضب الملك لدى سماعه ذلك وقال — اذا كان كرانمر متزوجًا فليستعدّ لأشدّ انواع العقاب .. ان خادم الكنيسة يجب ان ينقطع لخدمة الله ومناجاته لا ان يهيم بالامور العالمية والملاذ الدنيوية

فقال دوغلاس — انك يا مولاي آية العدل والحكمة ، ونحن نعلم ان جلالتك اذا أجّلت عقاب احد المجرمين فانما ذلك لان بعض ذويك يستعطفونك عليه ويحولون دون عقابه

فقال الملك محتدمًا — ومتى كان ذلك ؟ ومَن هو المجرم الذي عدلتُ عن عقابه ؟ اين هو هذا الرجل الذي اذنب امام الله والملك ولم ينفذ فيه القضآء ؟

فقال غاردنر — هوذا حنة اسكيو لا تزال حية

وقال المهردار — انها حيةٌ لتهزأ بحكمتك وتزيّف تعاليمك

وقال دوغلاس — انها حية لان الاسقف كرانمر لا يشآء موتها

فقال الملك بازدراء — اذا كان كرانمر لا يشاء موتها فهو اذاً لا يشاء ان تُعاقَب هذه الفتاة وهي جانية اثيمة

وقال غاردنر — ليس في كل المملكة مَن ينكر عظم جنايتها ومع ذلك فقد مرَّ على ايداعها السجن سنتان، وهي بدلاً من ان تتوب وتعود الى رشدها نراها تزداد ازدراءً بالله وبالملك

فاجابهُ الملك — لم يكن تأجيلنا انفاذ الحكم فيهـا الاَّ لنحملها على التوبة، ليرى شعبنا اننا لا نحجم بعض الاحيان عن الرحمة والعفو، وقد اوعزنا اليك ان تحاول انقاذها بقوة صلواتك من مخالب الشيطان وارجاعها الى سبيل الحق

فقال غاردنر — نعم يا سيدي ولكنها لا تريد ان تسمع او تقنع. فقد أنذرتها بما ينتظرها من عذاب جهنم اذا هي لم ترجع الى الايمان الحقيقي، ثم سعيتُ لحملها على ذلك بجميع وسائل الارهاب، وأدخلتُ الى سجنها عدة اشخاص من المجرمين التائبين لتقتدي بهم فلم تفعل، بل بقيت كالحجر الاصمّ لا ترهب شيئاً ولا تلين لشيءٍ

وقال المهردار — بقيت لدينا وسيلة واحدة وهي الاخيرة فيلزمنا ان نلجأ اليها لانها اقوى من جميع الصلوات والارشادات، وطالما رددتُ بها أشدّ الهراطقة عناداً الى محجّة الهدى والصواب

فقال الملك — وما هي هذه الوسيلة ؟

قال — هي التعذيب

وقال غاردنر — جميع الوسائل حسنة اذا كانت تؤول الى الغـاية المقدسة

وقال المهردار – يجب ان نعذّب جسدها لنداوي نفسها

وقال دوغلاس – يجب ان نظهر للامة ان حكمة الملك لا تشفق على احد من المجرمين ولو كان تحت حماية اقرب اخصّاء الملك . . ان الامة يا مولاي قد تذمّرت لانها رأت ان العدل في هذه القضية لم يجرِ مجراه، وكل ذلك لان الاسقف كرانمر يدافع عن ماري اسكيو والملكة صديقتها

فذعر الملك وقال – لا يمكن الملكة ان تكون صديقة المجرمين

قال – حاشا جلالتها ان تكون صديقة المجرمين ولكنها صديقة ماري اسكيو وهي لا تعترف بجرمها . والمشهور الان ان الملكة كاترينا تحب جماعة المصلحين وتعضدهم، والشعب يدعوها لاجل ذلك بروتستانية لانه لا يجسر ان يدعوها هرطوقية

قال – اذا كان هذا ما يزعمه الشعب فهو مخطئ لان هنري الثامن يستحق بعدل ان يُدعى حامي الدين ورأس الكنيسة . . فانا لا اتساهل ولا أجبن امام العقوبات وليس لاحد ان يعزو اليّ شيئًا من الميل الى الرحمة والصفح، وما علمتموه من حوادث ماضيّ اكبر دليل على ما أقول . أفلم اعاقب طوماس موروس وكروموبل وهما اشهر رجال مملكتي لانهما تجاسرا على مخالفتي وعدم الاعتراف بتعليمي ? أفلم أقتل زوجتيّ الاثنتين وقد كانتا من أحبّ النساء اليّ وذلك لانهما استوجبتا غضبي ? فكيف للشعب ان يتهمني بعد امثال هذه الشواهد بالتساهل والرحمة ?

فقال دوغلاس – انك فعلتَ كل ذلك يا سيدي لانه لم يكن وقتئذٍ بازائك ملكة تمالئ الضالّين وتصادقهم وتدافع عنهم

فعبس الملك وقدحت عيناه شررًا وقال – انت تعرف يا دوغلاس

اني اكره مثل هذه التهجمات الخفية ، فاذا كان في استطاعتك ان تتهم الملكة بما اشرتَ اليه الان فقل صريحًا وأيّد التهمة بالبرهان

قال – ان الملكة يامولاي شريفة وصالحة ولكنها تفعل بعض الاحيان مسوقةً بتأثيرات قلبها . ولعلها باذن من جلالتك تكاتب ماري اسكيو

قال – ماذا تقول ؟ الملكة تكاتب ماري اسكيو ؟ ان ذلك كذب وبهتان ، وانك لم تقل ذلك الا لتوغر صدري على الملكة ، لانكم رأيتم شدة كلفي بها وثقتي باخلاصها وامانتها فلم يرضكم ذلك .. انتم لا تريدون ان يحيا قلبي وفيه شيء من السرور والرجاء ، بل تريدونه حجراً يابسًا لا يؤثر فيه الحب .. فحذارِ يا دوغلاس من شدة غضبي اذا لم يكن في طاقتك ان تأتيني بالبرهان الساطع

قال – لا أسهل من ذلك يا سيدي فان ابنتي اللادي حنة قد سلّمت جلالتها امس رسالةً من ماري اسكيو

فتنهد الملك وأطرق برأسه الى الارض وهو غائص في تأملاته . وكان الثلاثة ينظرون اليه وافئدتهم ترقص طربًا لانهم تحققوا ادراك الغاية

ثم رفع الملك رأسه والتفت الى المهردار قائلاً – اني اعهد اليك ايها اللورد ان تستخدم ما شئتَ من وسائل التعذيب والتنكيل لارجاع ماري اسكيو الى جادّة الحق

وقال لغاردنر – وأعدك ايها الاسقف ان افحص بنفسي الشكوى المقدّمة منك على الاسقف كرانمر فان كانت كما وصفتَ عاقبتُهُ شديداً

وقال لدوغلاس – وانت ايها اللورد سترى ان غضب الملك لا مردّ له وان حكمه نافذ في كل حال ، اذ ليس لاحد ان يستعطف قلبي او يمسك غضبي ..

والان قد انتهى موءتمرنا ولا بُدَّ لنا من التسلية لنطرد عن النفس عناَء ما شغلها الان من المهام. فليذهب غاردنر والمهردار الى شوءونهما ، واما انت يا دوغلاس فاصحبني الى الردهة الصغيرة حيث يمكنني ان اشاهد الوجوه الباسمة ، ثم تذهب فتدعو اليَّ المهرّج وكل مَن تصادفه في طريقك من الحسان ، لاني اريد ان انعش نفسي قليلاً بأشعة شموسهنَّ . – ولما قال ذلك استند على ذراع دوغلاس وخرج من الغرفة

وبقي الاسقف والمهردار واقفين ينظران في اثر الملك ، حتى اذا غاب عن ابصارهما قال غاردنر لرفيقه – كيف ترى ؟ ألا تظن اننا سنفوز بكل امنية نريدها ؟

فاجابه المهردار باسمًا – بلا شك ، فما هذا الملك الاَّ آلة نديرها بين ايدينا كما نشاَء . مسكين هنري الثامن ، انه يدعو نفسهُ سيف نقمة الله ويدَّعي القوة والجبروت والحرية ، وما هو في الحقيقة الاَّ شبح ضعيف أحمق بل خادم لافكارنا ، فالذي نريده نحمله عليه بالرغم عن نفسه . . وها اننا بفضل بلاهة جلالتهِ سنقتل اولاً ماري اسكيو ثم نواصل سعينا لسحق جميع الهراطقة والاعداء ، ومتى تمَّ لنا ما نريده من الحكم على كرانمر والملكة نسعى لتزويج الملك بامرأة من مذهبنا فتصالحه مع الله والكنيسة ، وهكذا نضرب جماعة المصلحين الضربة القاضية ونستأصل جرثومتهم من البلاد

وبعد حديث قصير في مثل هذه الشوءون خرج الاثنان من الغرفة. ولم يلبث يوحنا هيود ان خرج متسللاً من وراَء الستارة وذهب الى حيث كان الملك دون ان يشعر به احد

الفصل الخامس عشر

يوحنا هبود

شعر الملك في هذا النهار باحتياجه الى اللهو والسرور ، وكان يودُّ لو أُتيح له ان يرافق زوجتهُ الجميلة في نزهتها خارج القصر ، غير ان ذلك كان مستحيلاً عليه لوهن عزيمتهِ وضعف بدنه ، فاضطرَّ الى البقاء في القصر ، ولكنه لم يرد ان يحرم نفسهُ ما تميل اليه من اسباب القصف واللهو. وكان رجال القصر وسيداتهُ يعلمون ما يُطلَب منهم في مثل هذه الحال لإرضاء الملك واغتنام سروره

وكان هنري الثامن في هذا النهار أوهن قوةً وأضعف عزيمةً من كل نهار وقد اضطرَّ الى البقاء في كرسيّه بدون حراك . غير ان اهل البلاط كانوا يدعونه جميلاً فتّانًا ، والسيدات منهم كنَّ يبتسمنَ له ويُكثرنَ من ضروب التنهد وارسال نظرات الحب والهيام ويقلنَ له تلميحًا انهنَّ يحببنه وانه في نظرهنَّ لا يزال في شرخ الشباب ومنتهى الجمال ورشاقة القامة . وكانت اللادي حنة تنظر اليه بعينين تتقدان هيامًا وتتنهد امامه بما يشفُّ عن فرط كلَفها بحبه ، والدوقة ريشموند الجميلة تسمع بكل طرب وارتياح مـا كان يقوله لها من النوادر والنكات السفيهة التي تنبو عنها الاسماع وتنفر منها الطباع

مسكين هنري الثامن ! .. انه لا يقوى على الرقص لفرط سمنه وغلاظة جسمه ، ولا على الغنـاء لضعف صوته ، بيدَ انه قبل هذا العهد بعشرين سنة كان يفتن برقصهِ وغنائهِ جميع رجال القصر .. وها ان شمسهُ

قد أمست على شرف الغروب ولكنه لا يزال ميالاً الى الطرب والسرور، فعيناه تبصران الجمال، واذناه تسمعان ما عذب من الانغام والاقوال، ولسانهُ يتحركُ كيفما شآء، وقلبهُ يخفق لكل حسنآء

كان الملك جالساً في كرسيه ينتقل بنظره من اللادي حنة الى الدوقة ريشموند، وهو يشبّه الاولى بالزنبقة البيضآء والثانية بالوردة الارجوانية الزاهية. وكانت الاثنتان قد أقبلتا عليه تصغيان لهدره بتمام الإعجاب والارتياح، وكلما أقسم لهما على الحب تتنهدان وتطرقان حيآء

فقال الملك للادي حنة — انكِ تتنهدين يا حنة لانكِ تحبينني!

قالت — انك تهزأ بي ياذا الجلالة .. فانا لا أجترئ على محبتك لان الملكة كاترينا لا تزال حيةً

فانقبضت نفس الملك وظهر الاستيآء في وجهه وقال — نعم انها لا تزال حية

ان اللادي حنة قد اخطأت هذه المرة لانها ذكّرت الملك بزوجتهِ ولم يَحُن بعد اوان طلب موتها

وكان يوحنا هيود قد قرأ هذا الخاطر في وجه الملك فعزم ان يتخذه سلاحاً يدافع به عن الملكة فقال — نعم ان جلالتها لا تزال حية فالحمدلله على ذلك، لاننا كلنا نعلم ان الحياة في هذا القصر صعبة وشاقة لولا وجود ملكتنا الجميلة الجامعة بين حكمة الشيوخ وطهارة الاطفال، وقد شهد لها جميع مَن في هذا المكان باصالة الرأي ومحامد الخلال والكمال .. وبعد هذا أ فلا تشكرين الله معي ايتها اللادي حنة على بقآء الملكة كاترينا حيةً ؟

فقالت حنة وهي تجتهد في اخفآء ما خامرها من الغيظ والكمد — نعم اني أشكر الله على ذلك

فقال المهرّج — وانت ايها الملك ، أفلا تقول قولنا ؟

قال — وهل ترتاب في ذلك ايها المهرّج ؟

قال — آه يا ليتني كنتُ الملكَ هنري ! .. نعم يا مولاي اني أحسدك — ليس على تاجك او برفيرك او خدمك او مالك — وانما احسدك لانك تستطيع ان تشكر الله على بقآء زوجتك حية ، بينا انا لا أشكو الى الله الاّ لان زوجتي لا تزال حية . واعلم ايها الملك ان جميع الرجال يشكون شكواي ولم اصادف احداً منهم يستطيع ان يقول قولك ، ولكنك يا سيدي ممتاز بهذا كما امتزتَ بكل شيء غيره من الصفات والمزايا الفريدة التي تفصل بينك وبين شعبك ، وان هذا الشعب انما يزداد حباً لك وتفانياً في خدمتك وطاعتك عندما تقول « الحمد لله ان زوجتي لا تزال حية » . صدقني ايها الملك انك انت هو الرجل الوحيد في هذا البلاط الذي يمكنهُ ان يقول هكذا ، واما الباقون فمحرومون من هذه النعمة لانهم لا يستطيعون ان يحبوا زوجاتهم كما ان زوجاتهم لا يستطعنَ ان يحببنهم

فقالت اللادي ريشموند بحدّة — يا لك من ثرثار احمق ! وهل بلغت منك القحة ان تعتقد في النسآء هذا الاعتقاد ؟

قال — وهل انتِ في ريب من ذلك ؟

قالت — اذاً فمن نحن في نظرك ؟

قال — قطط في جلود ناعمة .. وذلك ان الله حينما لم يبقَ لديه ما يكفي من جلد القطط جعل جلد كنٍّ ناعماً

قالت — احذر ان نريك مخالبنا

قال — افعلي ما تشآءين لاني لا أخشى بأسكنّ واذا بدا ما يسوءني من شرّكنّ أرسم علامة الصليب فتختفينَ ، ومن المعلوم ان الشياطين تهرب من الصليب ، وما انتنّ الا شياطين متجسّدة

ثم تناول قيثارته وأخذ يعزف عليها الحانًا مطربة وينشد اغاني بذيئة لا يمكن ان تُقال الا في مثل بلاط الملك هنري الثامن الموصوف بكل نوع من الخلاعة والتهتك .. وكان الملك يسمع هذه الاغاني بكل طرب ، والسيدات واقفات مطرقات الى ان فرغ المهرّج من انشاده وقد وصفهنّ وبعضَ رجال الدين بكل نقيصة مشيرًا بنوع خاص الى اللادي حنة والاسقف غاردنر

وكانت اللادي ريشموند ترسل اليه سهام لحظها الملتهب بنار الغضب. ثم تقدمت وطلبت من الملك ان يعاقب يوحنا هيود على ما سامَ به النسآء من الاهانة والتحقير . فقهقه الملك ضاحكًا وازدادت السيدات غضبًا وحنقًا

فقالت اللادي ريشموند — ان هذا المهذار قد أهان النسآء قاطبةً فانا باسم عموم النسآء أطلب الانتقام منه

وقالت اللادي حنة — نعم الانتقام

وكرّرت جميع النسآء طلبها

فقال يوحنا — ما ارقّ قلوبكنّ ايتها السيدات ! انكنّ وديعات كالحَمام

فقال الملك ضاحكًا — حسن ، ان طلبكنّ يجب ان يكون نافذًا لان يوحنا قد أسخط عواطفكنّ ، فعاقبنهُ انتنّ كما تشأنَ

فقال يوحنا — نعم نعم اضربنني بالسياط كما ضُرب المسيح من قبل

لانه قال الحقيقة للفريسيين ، وهاءنذا أضع على رأسي اكليل الشوك

قال هذا ودنا من الملك بهيئة جدية فأخذ قبعتهُ المخملية عن رأسه ووضعها على رأسه

فقال الملك وقد اغرب في الضحك — نعم نعم اضربنه . — وأشار بيده الى قضبان من الورد كانت مزروعة في اوان صينية كبيرة وهي ذات اشواك حادة واستلى قائلاً — اقطعنَ هذه الورود واضربنَ يوحنا بعيدانها الشائكة الى ان تشفين غليلكنَّ منه

فطربتْ اللادي ريشموند وقالت — يجب ان يخلع يوحنا رداءه الخارجي لتشوكهُ اشواكنا . — ثم هجمت مع بقية النساء الحاضرات فخلعنَ عنه الرداء ، وبقي يوحنا واقفًا مأخوذًا ، لا يستر جسمهُ الا لباس خفيف من الانسجة الرقيقة

وهرعت السيدات بعد ذلك الى الاواني المشار اليها فقطعت كلٌّ منهنَّ قضيبًا من الورد ووقفنَ متحفزات يُردنَ الهجوم على المهرّج وهنَّ ثملات بخمرة الحبور والانتصار . وكان ضحك الملك يشجعهنَّ على ما اردنَ عمله ، وقد كنَّ وهنَّ في هذه الحالة شبيهات بالنساء المتهتكات وقد أحطنَ باله القصف والطرب عند قدماء الوثنيين

فقال الملك — قبل الشروع في هذا الجهاد يجب ان تشرب كل واحدة منكنَّ شيئًا من المشروبات لتزداد نشاطًا وتقوى ساعدًا . — ثم اخذ كأسًا ذهبية كبيرة فأترعها خمرًا وناولها للأدي حنة قائلاً — اشربي ايتها اللادي لتكون يدكِ اقوى وضربتكِ اشدّ

وكانت كل سيدة تتقدم بدورها فتشرب نخب الملك من المحل الذي

شرب هو منه ، وقد ابرقت اسرتهنَّ ولمعت عيونهنَّ وتوردت خدودهنَّ وثارت الرغبة فيهنَّ الى البطش بعدوهنَّ

فقال الملك — حبذا لو كان لدينا مصورٍ يستطيع ان يرسم لنا هذه الحفلة ، فانها تمثِّل بأجلى بيان مطاردة الالاهة ديانا لِأكتي

فقال يوحنا هيود — ولكن ليس بين هؤلاء النساء وديانا من شبه وانما هناك بون عظيم

قال — وما هو ؟

قال — ان ديانا كانت تحمل قرنها على جنبها واما هؤلاء النساء الخلأبات فقد جعلنَ ازواجهنَّ يحملون القرون في رؤوسهم

فضحك الرجال لهذا الكلام واستشاطت النساء غضباً ، ولكنهنَّ لم يلبثنَ ان انقسمنَ فرقتين بينهما ممرٌّ ضيق ثم اوعزنَ الى يوحنا ان يجتازه ليجري عليه العقاب الذي استحقهُ ، وقد رفعنَ بايديهنَّ قضبان الورد وتحفزنَ للعمل

وكان يوحنا هيود ينظر الى هذه الاستعدادات باستخفاف ، فلما فرغت السيدات منها سار بقدم ثابتة فوقف امامهنَّ وقال للملك — ان جلالتك قد امرت بقتلي بايدي هؤلاء الحسان فلي اذاً حق المحكوم عليه ان أسألك انفاذ طلبتي الاخيرة قبل موتي

فقال — لك ما تريد

قال — اني أسأل هؤلاء الجميلات شرطاً واحداً لا يستطعنَ بدونه ان يعاقبنني ، فهل تمنحني هذه النعمة ؟

قال — سل ما بدا لك فقد اجنا لك ان تشترط ما تشاء

قال – وهل تعدني بانفاذ هذا الشرط تماماً ؟

قال – نعم

فتقدم حينئذٍ يوحنا ووقف بين السيدات وقال لهنَّ – لتبدأ بضربي قبل غيرها السيدةُ التي امتازت بينكنَّ بكثرة عُشَّاقها ووفرة القرون التى زيَّنت بها رأس زوجها

فما سمعت السيدات هذا الكلام حتى علا الاصفرار وجوههنَّ فارتخت سواعدهنَّ وتساقطت قضبان الورد منهنَّ الى الارض ووقفنَ صامتات ينظرنَ الى يوحنا بملء الغضب ، وهو واقف بينهنَّ وعلى وجهه ابتسامة الازدرآء والانتصار

فقال الملك – ما بالكنَّ ايتها السيدات قد أَحجمتنَّ عن معاقبتهِ ؟

فقالت اللادي ريشموند – اننا نحتقر هذا المهذار ايها الملك فلا نريد ان نقتصَّ منه بانفسنا

قال – حقًّا ان يوحنا لا يُغلَب وقد استطاع بدهائهِ وحيلته ان ينجو من العقاب ، وهذا من المظاهر النادرة في مملكتي اذ لا يستطيع احد من رعاياي ان يقول انه نجا من العقاب الذي يستحقه . ولما كان يوحنا قد استوجب العقاب فسنعاقبهُ بغير هذه الطريقة .. هو يدَّعي الشعر والادب فعليه ان يبرهن على صحة دعواه بنظم قصيدة هزلية مطربة من شأنها ان تضحك الثكلى وتنسي هؤلاء السيدات ما اثاره الان في نفوسهنَّ من الحنق عليه . ويجب ان يقرأ هذه القصيدة بعد بضعة ايام في حفلة عيد مولد الملكة

فقال يوحنا – اذا كان المقصود اضحاك هؤلاء السيدات فيجب ان

تكون القصيدة المطلوبة في منتهى السفاهة والبذاءة لانهنَّ لا يطربنَ الا بمثل ذلك

فقالت اللادي حنة — يا لك من ثرثار سفيه ووغد لئيم !

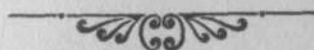
فنظر يوحنا الى اللورد دوغلاس وقال له برزانة — ايها اللورد ان ابنتك تخاطبك

فضحك الملك وقال — الان قد سمعت يا يوحنا امري فلا تنسَ ان حفلة العيد ستكون بعد اربعة ايام اما انا فامهلك يومين آخرين. وعليه فبعد ستة ايام يجب ان تفرغ من كتابة قصيدتك واذا تأخرت عن الموعد آمر هوءلاء الحسان بمعاقبتك بدون شرط

*

وانهم لفي مثل هذا الحديث سُمع صوت البوق ووقع حوافر الخيول، فطفح وجه يوحنا هيود سروراً والتفت الى حنة دوغلاس وقال لها — ها ان جلالة الملكة قد عادت من نزهتها فلم يبقَ لكِ ايتها اللادي الا ان تبادري لاستقبالها وتقومي بواجبات الخدمة لجلالتها، لان الملكة كما قلتِ منذ هنيهة لا تزال حيةً

وقبل ان يسمع يوحنا جوابها انطلق يعدو كالسهم الى سلالم القصر لاستقبال الملكة. وسارت اللادي حنة في اثره متهيجة النفس ثائرة الغضب وهي تقول في نفسها — ان هذا المهرّج يجب ان يموت لانه صديق الملكة..



الفصل السادس عشر

الصديق الامين

بينا كانت الملكة تصعد في سلالم القصر أبصرت يوحنا هيود فحيتهُ بابتسامة لطيفة وسألتهُ عن حاله ، فانحنى لها شاكرًا وقال بصوتٍ مرتفع — مولاتي ان لي كلامًا اقولهُ لجلالتكِ سرًّا باسم جلالة الملك

فانحازت الملكة ناحيةً وقالت لحاشيتها — اذًا فنحن نرجو منكم ايها اللوردات والسيدات ان تبتعدوا عنا قليلاً ليتمكن هذا الرسول من اداء الرسالة

ولما خلَت الملكة بيوحنا سألتهُ عن مراده فقال — اصغي لكلامي يا ذات الجلالة واحفظيه حرفًا حرفًا في اعماق ذاكرتكِ . ان اعداءكِ قد تآمروا عليكِ في هذا النهار وبعد اسبوع اي في حفلة العيد المقبل تظهر دسيستهم . وعليه فيجب ان تكوني على تمام الحذر والانتباه لكل كلمة تفوهين بها ولكل فكرٍ يخطر في بالكِ . احذري كل خطوة وكل حركة تأتينها لانهم يرصدونكِ ويسمعونكِ في كل مكان وحال وقد يسمعون ما يهجس به ضميركِ ، فلا تصدقي احدًا ولا تثقي الأ بي ، لان خطرًا عظيماً يتهددكِ فلا يمكنكِ ان تنجي منهُ الا بأعظم فطنة وأشدّ تيقظ

لم تضحك الملكة هذه المرة من انذار المهرّج بل ارتعشت قليلاً وقالت له برزانة — وما هي هذه المؤامرة التي يدبّرونها ؟

قال اني لم أفهمها تمامًا الان وانما أعرف انهم يتآمرون بيدَ اني سأراقب جميع حركاتهم وسكناتهم وأسعى جهدي لكشف خفاياهم وإحباط مساعيهم

قالت — وهل هذه المؤامرة موجهة ضدي فقط ام تتناول سواي ايضـاً ؟

قال — انها موجّهة اليكِ والى صديقكِ

فارتجفت الملكة وقالت — واي صديق تعني ؟

قال — الاسقف كرانمر

فتنفست الملكة طويلاً ، وأدرك يوحنا ما جال في خاطرها فقال برنة الحزن — انهم يتهددونكما فقط ، ولكن لا تنسي يا ذات الجلالة ان في هلاك كرانمر هلاككِ ايضاً فاذا دافعتِ عنهُ امام الملك فكأنما تدافعين عن نفسكِ وعن اصدقائكِ ايضاً

فاحمرّت وجنتا الملكة خجلاً وقالت — انا عـالمة انك والاسقف كرانمر الصديقان الوحيدان لي هنا

قال — ولكِ صديق ثالث ايضاً لا يقلّ تهالكاً في سبيل خدمتكِ وهو اللورد طوماس سيمور وقد ذكرتهُ لكِ قبل الان

فابتسمت الملكة وقالت — تسألني ان لا أثق بسواك في هذا القصر ، فأنا اريد الان ان ابرهن لك على حسن ثقتي بك . . فانتظرني في منتصف هذه الليلة في الردهة الخضراء المشرفة على الحديقة لترافقني في رحلة ذات خطر . فهل يمكنني ان أعتمد على شجاعتك يا يوحنا كل الاعتماد ؟

قال — نعم لاني مستعد ان افديك بروحي

قالت — كن اذاً على تمام الاستعداد ولا تنسَ ان تأخذ سلاحك

قال — سمعاً وطاعةً يا سيدتي فهل لكِ ان تأمري بغير هذا ؟

قالت — كلاّ ولكن اذا قابلت اللورد طوماس سيمور بلّغهُ تحيتي

لانهُ انقذني اليوم من خطر الموت فيجب ان اقابله بالشكر

ثم ودَّعت يوحنا وانصرفت لشأنها ، وبقي هو واقفًا مطرقًا برأسهِ الى الارض غائصًا في لجة تأملاته . وبعد حصة من الزمن سمع مَن يناديه باسمهِ فالتفت ، واذا به يرى البرنسة اليصابات قد دنت منه وعليها علائم القلق والارتباك ، فأدرك انها قادمة اليه لتوقفهُ على اول سرٍّ لها ، فحيَّاها باحترام ونظر اليها بلطف

فقالت له — انا أعلم يا يوحنا انك تحبني وانك كنتَ مخلصًا لوالدتي المسكينة وشاهدًا على براءتها ونزاهتها ولكنهُ لم يُتح لك ان تخلِّصها ، فهل تريد الان ان تخدم ابنة حنة بولين وتخلص لها كما اخلصت لوالدتها ؟

قــال — اني اريد ذلك من صميم القلب وأُقسم لكِ بشرفي على الاخلاص والامانة الى النَفَس الاخير من حياتي

قالت — اني واثقة بك ايها الصديق الامين واريد ان اكاشفك بسرٍّ لا يعلمهُ الا الله لانَّ في اذاعتهِ ما يقودني الى النطع . فأقسم لي انك لا تبوح به مهما كانت الاحوال والاسباب

قال — اني أقسم لكِ ايتها البرنسة بذكر والدتكِ الصالح ان لا أبوح بحرف مما تقولين

قالت — أدنُ مني اذًا ايها الصديق واسمع ما أفضي بهِ اليك . اني عاشقة يا يوحنا . . ولعلك تستغرب ذلك اشدَّ الاستغراب ، لاني لا أزال في الربيع الرابع عشر من حياتي ، وكل فتاة في هذه السن لا تعرف شيئًا من عواطف المحبين ولا تنفتح عيناها للحب ، ولكن لا تنسَ ان كثيرات من بنات الجنوب يصبحنَ بتأثير اشعة الشمس الحارَّة زوجات وامهات

وهنٌ في هذه السن ، وقد حدث لي ان نضج قلبي للحب قبل اوانه ، لا بتأثير اشعة شمس السعادة بل بتأثير الاحزان والمصائب ، فقد حرمني الملك هناءَ مستقبلي وسعادة ايامي فأريد اذًا ان يبقى لي حق في حياة الحب. اني لن اكون ملكة ، فيجب ان أسعى لأكون امرأة محبة وسعيدة. انهم يريدون ان اظلَّ في الظلمة مقصيَّة ومنسيَّة ، ولكنهم لا يستطيعون ان يحولوا دون رغبتي في تزيين نفسي بالازهار الجميلة واضاءة وجودي بكواكب الحب المشعَّة اكثر من التاج الملوكي

قال – انكِ في ضلال مبين ايتها البرنسة لانكِ ما اخترتِ هذا السبيل الا لاعتقادكِ استحالة السبيل الآخر. انتِ تريدين ان تحبّي وتعشقي لانك مُبعَدة عن السلطة. ان قلبكِ يصبو الى المجد والشرف فلما رأيتِ استحالتهما عزمت ان تغذّيه بالحب لتنسي ما استولى على نفسكِ من الآلام. ولكن صدّقيني ايتها البرنسة انكِ لم تعرفي نفسكِ بعد لانكِ ترومين ان ترمي بها في مهواة الشقاء. فانتِ لم تولدي لتكوني زوجةً محبةً فقط ، لان رأسك أعلى وأكبر من ان تكلّليه باكليل من الآس والرياحين ، فلا تجعلي للاوهام سبيلاً الى عقلكِ. نعم ان في عروقكِ ما في عروق والدكِ من شدَّة العواطف والانفة ، ولكن اياكِ ان تخطي خطوة قبل ان تتبصري طويلاً. انكِ واقفة الان على احدى درجات العرش فلا تعودي عنها خائبة بل اثبتي واقفة عليها لترتقي غيرها. لا تحرمي نفسكِ حقوقكِ القانونية وتُضيعي سعادة مستقبلكِ في سبيل الطيش ، بل تدبّري الامر بالاناة والصبر وانتظري ما تولده لكِ الايام ، فلا مستحيل في هذا الوجود. انكِ برنسة الان ولا يبعد ان تصبحي ملكةً بعد حين ، على شرط ان لا

تستبدلي اسمكِ بأقل منهُ مجداً ورفعةً

فابتسمت البرنسة وقالت — ولكني قلتُ لك اني احبه

— لكِ ان تحبيه بشرط ان تكتمي هذا الحب في نفسكِ

— ولكنهُ عالم بشغفي به

— انتِ ايتها البرنسة كطفلة امسكت جمرةً فاحترقت يداها لانها لم تعلم ان الجمرة مشتعلة

— لتشتعل هذه النار ما شاءَت فانا افضِّل ان احترق بها من ان تنطفيء حياتي في هذا الوَسط المفعم بالرزايا . وقد قلتُ لك اني احبه وانه عالم بذلك

— أحبيه ولا تتزوجيه

— ان الزواج لم يخطر في بالي بعد . — ثم اطرقت برأسها صامتةً

فقال يوحنا في نفسهِ : ان من اعظم حسنات الملك هنري الثامن تعييني مهرّجاً في بلاطهِ ، لاني وانا في هذه الوظيفة قد اصبحت موضع ثقة الملكة وهذه البرنسة ، فيجب ان أخاص الخدمة لكلتيهما وأقيهما من كل تجربة

وبعد صمت قليل رفعت البرنسة رأسها وقالت — صدقتَ يا يوحنا ، ان الزواج هو غاية كل حب

قال — بيدَ اني لم اذكر لكِ ذلك الا لتحذري هذا الزواج فلا يطيشنَّ الحبُّ حلمكِ

قالت — حسن ان ذلك في حكم المستقبل ، اما الان فقد وعدتُ حبيبي بالمقابلة

فذعر يوحنا وقال – اما انا فأرجو ان تخلفي وعدكِ له ولا تقابليه

قالت – ان ابنة هنري الثامن تريد ان تنجز ما وعدت به ولو كان في ذلك حتفها ' فلا تحاول اقناعي بالرفض والعدول لان وعدي ثابت كالصخر . اما انت فاذا رأيت ان ذلك مما لا قِبَل لك به وانك ترفض مساعدتي في هذا السبيل فقل صريحًا وانا لا ألبث ان أرى مَن يخدمني سواك

قال – انكِ في كل وقت تستطيعين ان تجدي مَن يخدمكِ ويفشي سرّكِ ... انكِ قد وثقتِ بي ايتها البرنسة فسأخدمك بامانة وأدفع عنك كل مكروه . فقولي الان ماذا يُطلب مني ان أفعل لمرضاتكِ ؟

قالت – انت تعلم يا يوحنا انني أُقيم في القصر في القسم المشرف على الحديقة ' وقد اهتديتُ في احدى غرفي الى باب يؤدّي الى دهليز سرّي يصل الى البرج وهو الان مُقفر لا يقطنهُ احد ولا يؤمّهُ احد ' اما غرفه فجميعها فاخرة الرياش والاثاث . ففي هذا البرج اريد ان أستقبل حبيبي

قال – ولكن كيف يمكنه ان يوافيكِ الى هناك؟

قالت – انني قد مهَّدتُ لذلك كل سبيل ' لان حبيبي قد سألني هذه المقابلة مرات كثيرة وانا كنتُ أَعده بها وأُرجئ ذلك الى ان كان هذا النهار وقد تمَّت استعداداتي فأعلنت له رضاي ولم يبقَ الا ان أُوفدك اليه لتطلعهُ على سرّ الوصول الى البرج . فاعلم اذًا ان للبرج سلمًا لولبية تؤدي الى باب صغير ومنهُ الى الحديقة ولديَّ مفتاح هذا البـاب فخذه الى حبيبي وقل له ان لا يبرح القصر في هذا المسآء بل ينتظر في الحديقة ثم يأتي اليَّ ' لاني سأكون بانتظاره في البرج في الغرفة الكبرى الواقعة

تجاه السلَّم

قال – وفي اية ساعة تريدين ان تستقبليه ؟

قالت – في منتصف الليل لاني لا أستطيع مقابلتهُ نهارًا لكثرة العيون التي تترصدني في كل دقيقة منهُ . ولما كانت الشمس قد آذنت الان بالمغيب فانطلق حالاً الى حيث حبيبي وبلِّغه الخبر

ولما قالت ذلك نظرت الى يوحنا بلطف ثم تحوَّلت عنه تريد الانصراف فاستوقفها بقوله – انكِ ايتها البرنسة قد نسيتِ اهمَّ امر لانك لم تذكري لي اسم هذا الحبيب

قالت – عجبًا يا يوحنا ، انك مشهور بحدة النظر ودقة الفكر ، فكيف لم تبصر هذا الحبيب الذي استحقَّ ان تهواه ابنة الملك لانه الوحيد بين رجال هذا البلاط بكياستهِ وظرفه !

قال – ومَن هو يا سيدتي لاني اجهله كل الجهل

قالت – هو اللورد طوماس سيمور

ولما قالت ذلك انصرفت لشأنها وبقي يوحنا هيود واقفًا في مكانهِ شاخصًا ببصره سابحًا في لجة الافكار وعلى وجهه امائر الحيرة والذهول . ثم تنفس طويلاً وقال في نفسهِ : ما طوماس سيمور هذا الا ساحر كبير سقى جميع النساء من كأس هواه وخلب البابهنَّ برائع جماله وسحر بيانه ، فالملكة تحبه والبرنسة تحبه ودوقة ريشموند تحبه وتسعى للاقتران به ، وهو يقول لكل واحدة منهنَّ انه يحبها ويهواها ولن يريد سواها . . فهو اذًا ماكر خائن يطمح بنظره من وراء حبهِ لكل منهنَّ الى غاية لا يمكن ان تخفى عليَّ . ولما كنتُ امينًا للملكة فانا لا اريد ان تقع في هذه الحبائل

بل يجب ان أقيها منها لان حبها لهذا الرجل سيوقعها في تهلكة لا مناص منها . وعليه فليحبَّ طوماس سيمور مَن شآء ، ولتحبهُ البرنسة اليعابات ما شآءت ، واما الملكة فيجب ان تنفر منهُ نفورها من الافعى ، ومن اخصّ واجباتي ان أسعى جهدي في القآء النفور والجفآء بينها وبينه . . . اني قد عاهدتُ البرنسة على كتم سرّها وسأبقى محافظاً على عهدي دون ان ابوح بشيءٍ من ذلك للملكة ، غير اني سأسعى لقتل هذا الحب في نفس الملكة بغير هذه الوسيلة ، ولا ريب ان عملي هذا سيكون له اشدّ تأثير في قلبها غير انهُ سيحفظ رأسها الجميل من سيف الجلاّد

وبينا كان يوحنا يناجي نفسَهُ بمثل ذلك اذ شعر بيدٍ أُلقيت على كتفهِ وصوت يقول له — ما بالك تنظر الى السمآء ? فهل تبحث هناك عن خواطر جديدة تريد ان تُضحك بها الملك وتهجو رجالَ الدين ?

فلم يلتفت يوحنا الى المتكلم بل لبث واقفاً في مكانه لاهياً بافكاره وقد عرف ان هذا المتكلم هو طوماس سيمور بعينه

ولما رأى طوماس عدم اكتراث المهرّج به استتلى قائلاً — يظهر لي ان السمآء قد اوحت اليك بافكار جديدة ستكون شديدة الوطأة على بعض رجال الدين الذين يتحاملون على كل شريف من رجال البلاط ويوغرون صدر الملك على اصدقائهِ المخلصين

فقال يوحنا — كلا ايها اللورد وانما كنتُ انظر الى باشق كان محلّقاً في السمآء وقد أمسك بكل مخلب من مخلبيه حمامةً فاستغربتُ هذا الامر وقلت ان استئثار الباشق بحمامتين في وقت واحد منافٍ للقانون والطبيعة

وكأنَّ اللورد طوماس ادركَ ما في كلام المهرّج من الاشارة اليه

فنظر اليهِ شزرًا وامسك عن الكلام

فقال يوحنا – ان هذا الباشق أحمق وسيؤذيه طمعهُ لانهُ لا يستطيع ان يفترس الحمامتين دفعةً واحدةً اذ ليس له مخلب ثالث يساعده على ذلك، وعليهِ فلا بُدَّ لهذا الباشق ان يُفلت احدى الحمامتين ليتسنى له افتراس الاخرى والا خسرهما جميعًا

فهزَّ طوماس رأسه وقال – انت اذًا لاهٍ بمراقبة هذا الباشق وتزعم انه محلِّق في السماء، ولعلك غير صادق في قولك وانما أردتَ التمويه عليَّ .. فقد يكون هذا الباشق على الارض وقريبًا منك الان!

فقال يوحنا متجاهلاً – هو ما قلتهُ لك لان الباشق لا يزال طائرًا وقد رأيتُ صاحب الحمامتين يبحث عنهما وبيده سلاحه، ولا بُدَّ له اخيرًا من الظفر بهذا الخاطف والفتك به

فقال طوماس وهو يكاد يتميز من شدة الغضب – كفى هذيانًا يا هذا! انت تريد ان تلقي عليَّ امثولةً ولكنني لا اريد ان اسمع المجانين ولو نطقوا بالحكمة

قال – صدقتَ ايها اللورد فلا ينطق بالحكمة الا المجانين وقلَّ مَن يسمعهم لان لكلٍ في هذه الدنيا سبيلاً خاصًا الى السعادة .. فاني أقدّم لك يا سيدي مفتاحًا سيفضي بك الى ضالتك المنشودة، فخذه واذهب عند منتصف الليل الى الحديقة فترى في طرفها بابًا صغيرًا تفتحه بهذا المفتاح وتصعد في سلَّم لولبية الى البرج حيث تستقبلك شفتان حارَّتان ويدان غضَّتان، واما انا فينبغي لي ان اسرع الى منزلي لأكتب الرواية التي امرني الملك بوضعها

قال — ولكنك لم تقل لي مَن أعطاك هذا المفتاح ومَن الذي ينتظرني في البرج ؟

قال — يظهر انك تتوقع مقابلة اكثر من شخص ! .. فاعلم اذًا ان الحمامة الصغرى هي التي ارسلت اليك هذا المفتاح

قال — وهل هي البرنسة اليصابات ؟

قال — انت قلت واما انا فلم اذكر اسمها

ثم انصرف يوحنا هيود الى منزلهِ وبقي طوماس سيمور في مكانهِ ' ينظر الى المفتاح ويقول في نفسهِ : ان البرنسة تنتظرني ! .. ومَن يدري الى اية جهة يقع التاج الملوكي متى تدحرج عن رأس هنري ؟ .. انني احب كاترينا ولكنني عبد لمطامعي ' واذا اقتضى الامر فاني لا أتأخر عن تضحية قلبي في سبيل هذه المطامع

الفصل السابع عشر

اللادي حنه

خيّم الظلام وساد السكون في قصر ويتغول لان الملك كان راقدًا ' فنام ايضًا الحرّاس وأوى كل واحد من رجال الحاشية الى قراره ' وقد شعر الجميع بالحرية الشخصية التي لم يكونوا يشعرون بها الا متى نام الملك

وكانت الملكة بعد ان تناولت طعام العشآء مع زوجها قد انفردت ايضًا في مخدعها فصرفت عنها وصائفهـا لانها شعرت بمسيس الحاجة الى الراحة والرقاد على اثر التعب المفرط الذي اصابها في نزهة هذا النهار .

وكانت الملكة ايضاً تشعر بنفس تلك الحرية متى فصلت عن زوجها وأوت الى مخدعها

وكان السكون سائداً في كل جهة من جهات القصر ، فلم يُرَ احد ولم يُسمَع صوت

في هذا الوقت من الليل شُوهد في بعض دهاليز القصر التي تنيرها بعض المصابيح الضئيلة شبح امرأة في رداء اسود طويل وعلى وجهها نقاب ثقيل ، وكانت تسير بتمام الحذر والتيقظ لا تكاد تطأ الارض بقدميها . وما عتمت ان انحدرت في بعض سلالم القصر وهي تقف من وقت الى آخر فتحبس نَفَسها وتنصت قليلاً علها تسمع صوتاً او ترى عيناً تراقبها ثم تعود الى مسيرها . ولما تخطّت الى القسم الصيفي من القصر ، ولم يكن يقيم فيه احد آنئذٍ ، أسرعت في سيرها لتحققها خلوّ المكان من كل رقيب . وبعد قليل بلغت باباً يؤدّي الى ردهة تشرف على الحديقة فأصاخت بسمعها قليلاً ثم صفقت بيديها ثلاثاً ، فسمعت الجواب بالمثل من وراء الباب ، فقالت في نفسها : انه هنا فابتعدي الان ايتها الاحزان والدموع ، لاني سأجتمع به ثانيةً . — ولما قالت ذلك دفعت الباب ودخلت . وكان الظلام مخيماً في الغرفة غير ان المرأة قد أبصرت رجلاً كان بانتظارها ، لان عين الحب تخترق الظلام

كانت هذه المرأة — اللادي حنة ، وكان هذا الرجل — الكونت هنري غوفارد

وما هي الا لحظة حتى كانت حنة بين ذراعي حبيبها ، فألقت رأسها الى صدره وجلسا معاً على مقعد في تلك الردهة . وبعد ان تعانقا ملياً قال

هنري— ها انكِ بازائي ثانيةً ايتها المفدّاة بالروح ، وها ان ذراعيَّ تضمان قوامكِ الجميل وشفتيَّ تقبّلان ثغركِ البسّام .. آه يا حبيبتي ! ان هذا الفراق الطويل قد آلمني جداً .. ستة ايام بلياليها وانا أتقلّب على احرّ من الجمر وأذوق من عذاب الفراق الواناً ، فهلاّ سمعتِ ندائي او شعرتِ بتنهداتي ودموعي .. انتِ قاسية ظالمة لانكِ لم تشعري بما تولاّني من العذاب ولم ترثي لدموعي . فكنتُ أختلس النظر اليكِ في اثناء الاجتماعات فأرى عينيكِ بهيتين ووجهكِ طافحاً بالمسرّة كأنكِ فارغة البال خليَّة القلب .. نعم نعم فأنتِ الملكة المتكبرة الجامدة القلب اولاً ، والمرأة العاشقة ثانياً

فقالت حنة بصوت خافت — انك ظالم يا هنري العزيز لانك تعزو اليَّ خلوَّ البال وجمود القلب ، ولكن الحقيقة ليست كما تقول ، فان آلامي واحزاني هي اكثر بكثيرٍ مما تشعر به انت لاني مضطرّة الى كتمها فكانت تنهش قلبي كأنها الديدان الجائِعة ، اما انت فتستطيع في كل وقت ان تخفّفِ آلامك بالتنهدات والدموع ومناجاة النفس . انك في مركز لا تُجبَر معه على التظاهر بالبشاشة والانس ، اما انا فمضطرة على الدوام ان أظهر بمظهر السرور والفرح وأُصغي الى كل كلمة رياء وتزلُّف أسمعها من رجال القصر . انك حرٌّ ان تتألَّم نفسك ويخفق قلبك وتذرف عيناك الدموع ، اما انا فمقيَّدة في كل لحظة من حياتي بأشدّ القوانين والعادات ، وليس لي في هذه العبودية من تعزية وسلوان سوى كتبك واشعارك التي تراسلني بها ، فانها كندى السماء تنعش نفسي وتشفي جروح احزاني . اجل ايها الحبيب ان قصائِدك الرقيقة كانت تسرّي همومي وتحدثني بأفصح

لسان عن شدة هيامك بي ، فكنت أستقبلها بمنتهى الجذل وأقبلها الوفا من المرات ، لانهـا تحمل اليَّ انفاسك وتنهداتك . وقد تعاظمت محبتي لصديقتي العزيزة اللادي حنة دوغلاس لانها رسول محبتنا ، وهي كلما دخلت عليَّ وبيدها رسالة منك أحسبها حمامة النجاة وفي فمها غصن الزيتون رمز السلام والسعادة ، فأستقبلها بجميع عواطفي وأعانقها وأغطي وجهها بالقبلات التي اريدها لك واشعر كل مرة بضعفي وتقصيري عن مكافأة هذه الفتاة المسكينة التي لم نبلغ هذه الدرجة من السعادة الا بواسطتها، ولا شك انك انت ايضاً تشاركني باظهار شعائر المنة والشكر لها

قال — كيف تقولين انها مسكينة وهي ملازمة لكِ ، تراكِ وتسمعكِ على الدوام ؟

قالت — اني ادعوها مسكينة لانها تعسة . فهي تحب يا هنري الى حدّ اليأس والجنون ، وحبيبها مُعرضٌ عنها لا يقابل محبتها بالمثل ، ولهذا فهي تذوب اسىً وشقآء ، ألم تبصر اصفرار وجهها وضُوُولة عينيها ؟

قال — كلاَّ اني لم ابصر شيئًا لاني لا أرى سواكِ ، وما اللادي حنة في نظري الا شبح لا حياة له كسائر النسآء . . . ولكن ما هذا ؟ انك تجفين وتبكين ! فماذا جرى لكِ ؟

قالت — أبكي لاني سعيدة جداً . أبكي عندما تتمثل لي حالة الانسان المحب بكل جوارحه وليس له من محبوبه سوى الصدّ والهجران. وهكذا يموت شقياً منسياً . . . تلك هي حالة حنة دوغلاس المسكينة ايها العزيز

قال — مالنا ولها ، اننا نحب بعضنا بعضاً فلا ينبغي ان نفتكر بسوى

ذلك . والان كفكفي ايتها الحبيبة دموعكِ ودعيني امسحها بقبلاتي ' واذا أبيتِ الأ البكآء فلا تبكي الا بكآء الفرح

قالت – نعم يجب ان نكون سعيدين ! – ثم ضمتهُ الى صدرها فتعانقا وجلسا حيناً صامتين و كلٌّ منهما يسمع ضربات قلب الآخر

وانهما لكذلك اذ سمعا ساعة البرج تقرع الثانية بعد نصف الليل فقامت حنة تريد الانصراف فاستوقفها هنري قائلاً – اجلسي بعد قليلاً بازائي يا شمس حياتي ' فالليلة مظلمة والفجر لا يزال بعيداً

قالت – بل لا بُدَّ من الذهاب الان فقد انقضت ساعات سعادتي وهنائي

قال – لا بل انكِ مشتاقة الى تاجكِ وبرفيركِ ' فاسمحي لي قبل انصرافكِ ان اقبل كتفيكِ بشفتيَّ فهما لا يقلاَّن احمراراً عن البرفير القرمزي الذي تريدين ان تتشحي به

فتنهدت حنة وقالت – ثق باني مستعدة ان اقدم تاجي وحياتي فدى لهاتين الشفتين . – ولما قالت ذلك ضمتهُ الى صدرها وقبلتهُ طويلاً

فقال – انتِ اذاً تحبينني !

قالت – نعم احبك فهل تشك في ذلك ؟

قال – وهل تقسمين انكِ لا تحبين سواي ؟

قالت – اني أُقسم لك على شدة حبي لك وهيامي بك ولا أشهد على ذلك الا الله العالم بخفايا القلوب

قال – مباركةٌ انتِ بين النسآء ايتها الحبيبة الوحيدة المفدَّاة بكل عزيز في هذا الكون . . ويا ليتني أستطيع ان ادعوكِ باسمكِ لانه يشقُّ

عليَّ ان أُحرَم هذا الحق فاسمحي لي به ودعيني اناديكِ باسمكِ

فذعرت حنة وقالت — هذا لا يمكن ان يكون ' لاني في هذه الساعات السعيدة التي اقضيها الى جانبك أكون كالنائم المتلذذ باحلامه ' فاذا دعوتني باسمي أخشى ان افيق من حلمي فيكون ذلك سببًا لشقائي... اني أكره اسمي لان غيرك يلفظهُ فأُريد ان تدعوني انت بغيره .. نعم نعم ادعني ياهنري بما تشآء واعطني اسمًا جديدًا سرّيًّا لا يقدر احد ان يناديني به سواك

قال — اذا لم يكن بُدٌّ من ذلك فليكن اسمكِ مذ الان جيرالدينا ' وسيكون هذا الاسم عزيزًا جدًّا لديَّ أتغزل به جهارًا امام جميع الناس فلا يستطيع احد ان يمنعني ذلك ولو كان الملك نفسه ...

فارتعَشت حنة لدى ذكر اسم الملك وقاطعت حبيبها بقولها — اناشدك الله ان لا تذكر هذا الاسم ' ولا تنسَ انك أقسمتَ لي على عدم التلفظ به هنا ' كما أقسمتَ ان لا تبوح بسرّنا في غير هذا المكان لا بالكلام فقط بل بكل ابتسامة او اشارة او نظرة تدعو الى الريب والمظنة

قال — انا أذكر كل ذلك ولكنني اشعر باضطراب غير طبيعي اذ اضطرُ وانا على انفراد معك في مخدعكِ او في بعض جوانب القصر الى مخاطبتكِ كما يليق بالملكة . أفلا ترين ان لذلك اشدّ وقع وأسوأ تأثير في قلبي ؟ فلماذا لا تأذنين لي ونحن في مأمن من كل رقيب وواشٍ ان اذكرِك بهواي ولو تلميحًا ؟

قالت — كلاَّ كلاَّ واياك ان تفعل شيئًا مما ذكرت . انت تعلم ان هذا القصر حافل بجمهور الجواسيس والوشاة وهم يختبئون في كل مكان

ويترصدون كل حركة وكلمة واشارة تبدو منا . فجدّد لي قسمك ياهنري بحق الحب الذي بيننا ان تخاطبني كمولاتك الملكة في كل مكان ما عدا هذه الغرفة ، وان تظلَّ كما كنتَ سابقاً الخادم الامين لي واللورد الشريف الذي لم تتمكن النسآء من الاستيلاء على هواه ، وان لا تشير الى علاقاتنا الحية بشيء لا باشارة ولا بابتسامة ولا بضغط اليد ، ولتكن هذه الغرفة فقط هيكل حبنا فمتى خرجنا منها يجب ان ننسى حالاً كل علاقة ، وان لا نشوب اسرار سعادتنا بشيء آخر . فهل تعدني بكل ذلك ايها الحبيب ؟

فذهل هنري وقال — أعدكِ بكل ما تشاءين ولكني لا اكتمكِ شدّة اضطرابي وحيرتي حينما أراكِ في كل مكان من القصر باردة جامدة لا شعور في قلبكِ نحوي ، فأقول في نفسي ليست هذه هي المرأة التي احبها والتي تضمني الى صدرها في ظلمة الليل ، بل انما هي الملكة كاترينا ، لان المرأة مهما بلغت درجة تظاهرها وتجلدها لا يمكنها ان تتجرد من كل طبيعتها ومن كل كيانها وطباعها . . وكان اليأس يبلغ مني في بعض الاحيان حدّاً اتصوّر معهُ انخداعي وغروري فلا أُصدّق اجتماعي بكِ في هذه الغرفة او يخيَّل اليَّ ان شيطاناً يتخذ هيئتكِ ويأتي الى هنا لتعذيبي والازدرآء بعواطفي . وعندما يتولاني مثل هذا الفكر كنتُ أقع في يأس شديد وأوشك ان احنث بيميني فأقع على قدميكِ وأسألكِ بحضرة الملك وعلى مسمع من جميع رجال القصر : هل انتِ فقط كاترينا بارّ زوجة الملك هنري الثامن ام انتِ ايضاً المرأة التي أُحبها وأعبدها والتي اعترفت لي بهواها وأقسمت لي على الاخلاص والامانة والتي يحقُّ لي ان اضمها الى صدري كمحبوبتي الخاصة رغماً عن الملك والعالم باسره ؟

كانت حنة تسمع هذا الكلام وهي مبهوتة وفرائصها ترتعد. فلما فرغ هنري قالت له – وهل تعلم ماذا تكون نتيجة ذلك ؟

قال – اعدامنا معاً ، وهذا لا يخيفني لانكِ في الموت تكونين لي وحدي لا يستطيع احد ان يفرّق بيننا وليس لكِ حينئذٍ ان تنظري اليَّ شزرًا كما تفعلين في غير هذه الغرفة . . . واني اسألكِ بحق ما بيننا من العهود ان لا تنظري اليَّ بتاتًا اذا لم يكن في استطاعتكِ ان تنظري اليَّ بلطف ورقة

قالت – اذا فعلتُ ذلك يقول الناس انني اكرهك

قال – خير لي ان يقول الناس ذلك من ان أعلم انكِ لا تبالين بي واني لستُ لديكِ الاَّ رئيس حجَّابك

قالت – اخطأتَ يا هنري فانا اريد ان يعلم الجميع ارتياحي اليك واعتباري لمقامك ، ولذلك فقد عزمتُ ان اعطيك بحضور جميع رجال البلاط علامة لمحبتي لتتأكد شدة تعلقي بك ويزول من ذهنك ما خامرك من الريب فلا تعود تظن ان الذي يجتمع بك هنا هو شيطان الملكة لا الملكة نفسها

قال – اني واثق بعظم محبتك يا عزيزتي ولستُ محتاجًا الى علامة توءكد ذلك . واما ما بدا مني الان من الارتياب فليس سببهُ الا شدة تكتماكِ وعدم اكتراثكِ بعواطفي في غير هذا المكان

قالت – هذا ما تضطرني اليه الظروف فيجب ان نذعن لها. اما العلامة التي عزمتُ ان اعطيك اياها فهي ان الملك كما تعلم سيقوم بعد ايام قليلة باحتفال عظيم للشعراء ، ففي هذه الحفلة سأعطيك على مرأى من الملك

وجميع الحضور زهرة جميلة اكون قد زينتُ بها صدري ، وفي النوط الذهبي الذي يحيط بها تجد رسالةً مني . فهل يكفيك هذا البرهان على حبي ؟

فضمها هنري الى صدره وقبلها شاكرًا اما هي فأفلتت منه خائفة وقالت — حسبنا الان فقريبًا يبزغ الفجر وتشرق شمس النهار

فحاول هنري ان يمسكها ثانيةً بيدَ انها نفرت منه وسترت وجهها بنقابها

فقال — أصبتِ فان النهار قد دنا غير اني ابتهل اليكِ ان تأذني لي برؤية وجهكِ لحظة من الزمن لان نفسي تظمأ الى ذلك كما تظمأ الارض العطشى الى الندى .. فهيا بنا الى تلك النافذة حيث يمكنني على النور الساطع منها ان امتع بصري بجمال عينيكِ

قالت — لا تسألني شيئًا اذ لا بُد لك من الانصراف حالاً ، فنحن الان في الساعة الثالثة بعد نصف الليل ، وعن قريب يهبُّ رجال القصر من رقادهم وقد خُيِّل اليَّ ان شخصًا مرَّ الان امام الباب ، فأسرع أسرع يا حبيبي ان كنتَ لا تودُّ ان اموت جزعًا

ولما قالت ذلك بادرت فالبستهُ بيدها رداءه الكبير وقبعتهُ ثم قبلتهُ قبلة حارة ودفعتهُ جهةَ الباب وهي تقول — أستودعك الله الان ايها العزيز ... لا تنسَ انك متى اجتمعنا ثانيةً في هذا النهار تكون انت اللورد هنري غوفارد رئيس الحجاب وانا الملكة لا المرأة المحبة ، فقد انقضت سعادة هذا الاجتماع وطُويت معها كل علاقة بيننا

ثم فتحت الباب الزجاجي وأشارت الى هنري فخرج وهو يقول — الوداع يا جيرالدينا العزيزة ! قد جاء النهار ثانيةَ ، فسأحيّيكِ تحية العبد لملكتهِ واجرّب ان احتمل بصبر نظراتك الباردة وعدم مبالاتكِ بي

الفصل الثامن عشر

الجنرال لوبولد

بعد خروج اللورد هنري غوفارد أسرعت حنة دوغلاس الى نافذة الغرفة ووقفت تشيّعهُ بابصارها الى ان توارى عنها ، فمادت وهي في اشدّ الاضطرابات النفسية ، وقد شعرت بارتخاء اوصالها وثقل مصيبتها ، فجثت على ركبتيها واستخرطت في البكاء والنحيب

كانت هذه الفتاة منذ هنيهة جذلة سعيدة والان رأت نفسها في احطّ دركات التعس والحزن ، وقد تجسّم الشقاء في عينيها حتى كادت تلمسه بيديها ، وبلغ منها اليأس مبلغاً عظيماً ، فأنّت انيناً محرقاً وكادت تفقد رشدها

جثت هذه الفتاة على الارض وقد أظلم سمعها وبصرها ، فلم تسمع شيئاً ولم تبصر شيئاً ولم تشعر الا بسوء حالها واضطراب بلبالها ، وقد زايلها الخوف والحذر فلم تدرك الخطر الذي يتهددها لو رآها احد في هذه الغرفة في مثل ذلك الوقت

وانها لفي مثل هذه الحالة من اضطراب الذهن والغيبوبة اذ فُتح وراءها باب ودخل الى الغرفة رجل ، فاغلق الباب بهدوء ودنا من الفتاة وهي لا تزال على حالها من الذهول ، فوقف وراءها ينظر الى مبلغ حزنها ويسمع كلمات يأسها ، حتى اذا طال به الوقوف وسبر غور حزنها دنا منها وألقى يده على كتفيها ، فذعرت الفتاة والتفتت الى الرجل وقد اقشعر جسمها وجحظت عيناها وجمد الدم في عروقها

اما هو فنظر اليها بعينين جامدتين وقال لها بصوت لم يصدر عن قلب متألم — انهضي ايتها اللادي حنة اذ لا يليق بكِ يا ابنتي ان تجثي الا لله واما انتِ فتجثين لتمثال صنعته بيديكِ وأقمتِ له هيكلاً في قلبكِ واسمه « سعادتكِ الخاصة » . ومعلوم ما ورد في وصية الله بهذا الخصوص « لا يكن لك آلهة اخرى غيري » . لذلك اقول لكِ يا حنة دوغلاس انهضي ولا تسجدي لغير الله

سمعت حنة هذه الكلمات ورأت والدها بازائها ، فعاد اليها بعض رشدها ونهضت عن الارض ووقفت امامه جامدة كأنها تمثال من حجر

فألقى اللورد يده على رأسها وقال — اطرحي عنكِ احزان هذا العالم لانها تضركِ وتعوقكِ عن العمل المقدس الذي القاه الله على عاتقكِ . ولا تسترسلي الى الحزن لان الله يقول في كتابه المقدس : « تعالوا اليَّ يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم » فينبغي لكِ يا ابنتي ان تطرحي عن نفسكِ اثقالكِ امام العرش الملوكي فتتحول الى تاج يزيّن رأسكِ

فأبعدت حنة يد والدها عن رأسها وقالت له متضجّرةً مضطربةً — اني لا اريد تاجاً باركه الشيطان ولا برفيراً مصبوغاً بدم حبيبي

ولما قالت ذلك ارتجفت وهوت الى الارض . فنظر اليها اللورد دوغلاس بخلوّ البال دون ان يتحركّ قلبه تأثراً لحالتها وقال لها — انكِ لا تزالين تحت ثقل الاحزان ، فانهضي يا حنة لان الكنيسة تأمركِ بلساني ان تخدميها الى النهاية . انتِ اقسمتِ ان تقومي بهذا العمل العظيم بتمام الحزم والثبات والاعتماد على الله ، فلا يجب ان يخامرك الضعف والهوان ويزايل الابتسام شفتيكِ والرجاء قلبكِ ، هكذا اقسمتِ لسيدنا ورئيسنا

الاعظم اغناطيوس لويولا

فقالت حنة والدموع تخنق كلماتها — لا أستطيع، لا أستطيع يا والدي ذلك . اذ كيف يكون لقلبي السرور وقد مزقهُ اليأس ولعينيَّ الاشراق وقد عكَّرتهما دموع الحزن ؟ . . آه يا والدي اشفق عليَّ واذكر انك والدي واني ابنتك وابنة تلك المرأة التي احببتها والتي لا تجد راحة في قبرها اذا علمت انك تعذبني بما لا يحتمله بشر . . . آه يا والدتي العزيزة ! اني أبتهل الى روحكِ الطاهرة ان تأتي لمساعدتي . . اجعلي شيئاً من محبتكِ وحنانكِ في قلب هذا الوالد القاسي الذي يريد ان يقدّم ابنتهُ ضحيةً على مذبح الهه

فقال دوغلاس — ان الله قد ندبني لهذه الخدمة فيجب ان أطيعه كما فعل ابرهيم، ولكنني أختلف عنه بانني لا ازين ضحيتي بالازهار بل بالتاج الملوكي ولا اطعن صدرها بخنجر بل اعطيها بيدها الصولجان، واقول لها انكِ ملكة امام الناس فكوني خادمة امينة لله . انكِ تأمرين الناس فاسمعي اوامر الكنيسة المقدسة التي كرّستِ نفسكِ لها والتي تباركك ما دمتِ امينةً لها وتسحقكِ بلعنتها اذا خنتِها ونقضتِ عهدها . . انكِ لستِ ابنتي وانما انتِ كاهنةٌ وقفت نفسها للخدمة المقدسة فلا أرثي لدموعكِ لعلمي بانها ستتحول الى جواهر تزيّن رأسكِ . والان اقول لكِ يا حنة دوغلاس ان القديس اغناطيوس لويولا نفسه يعطيكِ اوامره بلساني، فاخضعي لي ليس لاني والدكِ بل لاني جنرال الجمعية التي اقسمتِ لها على الطاعة والخضوع الى آخر حياتكِ

قالت — اقتلني اذاً يا والدي، لان حياتي قد اصبحت سجناً مظلماً

وعذاباً مستمراً . عاقبني على عصياني بطعنة قوية من خنجرك الحادّ ، لاني أطلب الراحة وليست راحتي الا في الموت

قال — انتِ في اضغاث احلام يا حنة ، لانك هكذا تتصورين نتيجة عصيانك . فاعلمي اذاً ان الكفّارة ستكون هائلة جداً ، لاني ساعاقبك بقتل حبيبك بيدك وارمي بكِ الى وهدة الخزي والعار . فلا تحاولي ان تلعبي بالنار ، لئلا تحرقكِ قبل غيرك . انتِ رضيتِ ان تخدمي الكنيسة لتسودي على الارض وقد اجتزتِ من سبيلكِ شطراً كبيراً ، فلا تنكصي خائبةً . اننا قد نظرنا الى قلبك فأبصرنا فيه جرثومة الحب فأبحنا لك هذا الحب لتستخدميه في سبيل الغاية الشريفة التي نسعى اليها والتي فيها خلاص نفسك . انكِ تدعين اللورد هنري غوفارد حبيبكِ وزوجكِ وتقضين معه كل مرة بضع ساعات في منتهى الغبطة والسعادة ، فاذا ظللتِ مذعنةً لاوامر الكنيسة تكون حياتك كلها سعادة ونعيماً ، والا فاستعدّي لنار جهنم التي ستشويك وحبيبك بدون شفقة . . .

فقاطعته حنة قائلة — أُصمت ياوالدي ولا تخاطبني بعد الان بمثل هذا الكلام الهائل . اني خاضعة لجميع اوامرك فافعل بي ما تشآء لان إحجامي الان لا يفيدني شيئاً

قال — وماذا تستفيدين من هذا الاحجام ? اليست حياتك الان مفعمة لذةً وسعادةً ? فماذا ينقصكِ بعد ?

قالت — اني اقابل حبيبي الان بغير اسمي الحقيقي ، وهو يضمني الى صدره ويقبلني ويقسم لي يمين المحبة ، ولكن كل ذلك موجَّهٌ الى كاترينا وليس اليَّ

قال – ان اقسامه ترنّ في اذنيك وشفتيه تقبلان وجنتيكِ وهو يحب شخصكِ سواء دُعيتِ كاترينا بارّ او حنة دوغلاس

قالت – ولكن سيأتي يوم يعلم فيه غلطه فيعرض عني ويلعنني

قال – ان ذلك اليوم لن يأتي ، لان الكنيسة المقدسة تستطيع منعهُ اذا خضعتِ لها وانقدت لارادتها

فتنهدت حنة من كبدٍ حرّى وقالت – اني خاضعة ، فعدني يا والدي بان لا يُصاب حبيبي بأذى وان لا اكون سبب موته

قال – بل تكونين سبب نجاته على شرط ان تنجزي جميع اوامري. فأخبريني اولاً نتيجة اجتماعكما هذه الليلة ، أفلا يزال يعتقد انكِ الملكة ؟

قالت – نعم ولما رأيتهُ مرتاباً بذلك وعدتهُ ان اعطيه علامةً على مرأى من الجميع ليتحقق محبة الملكة له

قال – وما هي هذه العلامة ؟

قالت – وعدتهُ ان تعطيه الملكة في حفلة العيد المقبل زهرة تتضمن رسالة غرامية

قال – أحسنتِ تدبيراً ، لاننا بهذه الوسيلة نحمل الملكة على اتهام نفسها بنفسها ، فتظهر خيانتها للملك ، فيأمر حالاً بالقاء القبض عليها وإعدامها. ولكن كيف لنا ان نحمل الملكة على حمل الزهرة في ذلك الاحتفال وعلى تقديمها لهنري غوفارد ؟

قالت – انا احملها على ذلك لانها تحبني ولا تتأخر عن اجابة ملتمسي

قال – وانا أُطلع الملك على هذا السر واوغر صدره على الملكة فيقتلها حالما يظهر دليل خيانتها